التسامح بين الأديان الكتابية عند محمد أركون

Tolerance between the biblical religions of Mohammed Arkoun

Tolérance entre les religions bibliques de Mohammed Arkoun

د.اسماعيل عراب
قسم الفلسفة، جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله

تاريخ الإرسال: 23-12-2018- **تاريخ القبول:** 30-04-2019 - **تاريخ النشر:** 28- 07- 2020

ملخص

إن البعد الإنساني هو المحور الأساس في حوار الأديان، وثقافة التسامح والعيش المشترك ما كانت لتكون لولا تحاور النخب واتحاد الديانات من أجل عالم ينشد السلام ويحترم الإنسان، وهنا ينبغي الاعتراف أن تجاوز الخصومات والمتضادات وكل أنواع العنف التي ما أنفت تتفاقم بين ما ندعوه الإسلام والغرب، وهذا ما دعا إليه المفكر محمد أركون إذ انطلق من إعادة قراءة النصوص الدينية قراءة نقدية وما كان ذلك إلا بتفكيك الخطابات ووضعها في سياقاتها التاريخية. يعد التسامح اليوم مقوما من مقومات الحداثة السياسية والاجتماعية، ويستدعي هذا إيجاد تسوية ناجحة لتجاوز نزاعات التعصب بين الديانات الكتابية الثلاث: اليهودية، المسيحية، والإسلام، فالتسامح بهذا المفهوم ضرب في عقلنة ظاهرة الاختلاف وسعي إلى شروط التعايش السلمي عبر الحوار الذي يعد اعترافا متبادلا وقبولا للآخر.يجزم أركون أن دول العالم الإسلامي لم تعرف سياسة التسامح عمليا، ولكن في المستوى النظري يقر بأن النصوص الكبرى كانت تحتوي على البذور الأولى لفكرة التسامح، ويقدم نماذج ظلت تدعو إلى التسامح والعدل والايخاء وكلها بقيت أفكارا مرجوة وملحة ولا صدى لها في الواقع التاريخي، ويبقى تحقيقها مستحيلا بسبب البنى الاجتماعية السائدة وأطر الفكر المهيمنة. ويحث أركون كذلك منهجيا على ضرورة النقد الذاتي لكل تجارب الماضي وإعادة قراءة التراثيات الدينية الكتابية الثلاث على ضوء المستجدات الراهنة، ليخلص في أن المعيق الأساسي للتسامح بين الأديان الكتابية هو الموقف اللاهوتي. فاحترام الآخر بغض النظر عن انتماءاته الدينية أو المذهبية لم يظهر إلا في عصر الحداثة الفكرية أو الفلسفة التنويرية، حين اعترفت لأول مرة المسيحية الكاثوليكية بالإسلام واليهودية، ونبذ فكرة تملكها الحقيقة الإلهية كما كان سائدا في السابق.

الكلمات الدالة: التسامح؛ اللاتسامح؛ العيش المشترك؛ الأديان الكتابية؛ الموقف اللاهوتي؛ التفكير الديني؛ الإسلام والمسيحية؛ حوار الأديان.

Abstract
The human dimension is the cornerstone of interfaith dialogue, the culture of tolerance and coexistence. It is not only for the dialogue of the elites and the union of religions for a world that seeks peace and respect for human beings. Here we must recognize that the excesses of antagonisms and all kinds of violence, which have worsened between what we call Islam and the West. This is what was called by Mohammed Arkoun starting from re-reading the texts critical reading. It was only to dismantle the speeches and put them in their historical contexts. The concept of tolerance passed through the stages of intellectual basic contributed to its relationship with the reality of political and social modernity in a world characterized by pluralism. This requires a successful settlement to overcome the conflicts of intolerance among the three biblical religions: Judaism, Christianity and Islam. Tolerance is a striking blow to the phenomenon of difference and the pursuit of the conditions of peaceful coexistence through dialogue. It is a phenomenon that is inherent to human architecture and is a mutual recognition of the other. Mohamed Arkoun concludes that the countries of the Islamic world did not know the policy of tolerance in practice, but at the theoretical level recognizes that the great texts were the seeds of the first idea of tolerance, and provides models whose call for tolerance, but it does not comply to historical reality. Its achievement is impossible because of the dominant social structures and dominant frameworks of thought. It also systematically emphasizes the need for self-criticism of all past experiences and the rereading of the three biblical religions. This concludes that the main obstacle to tolerance among the biblical religions is the theological position. This ostracism between the three competing versions of the religion of monotheism. The respect for the other, regardless of religious or sectarian affiliations, appeared only in the era of intellectual modernity or enlightenment philosophy, when it first recognized Catholic Christianity Islam and Judaism. He rejects the idea of the appropriation of the divine truth as it had prevailed in the past.

Keywords: Tolerance; non-tolerance; co-existence; biblical religions; theologian attitude; religious thought; Islam and Christianity; interfaith dialogue.

Résumé
La dimension humaine est la pierre angulaire du dialogue interreligieux, de la culture de la tolérance et de la coexistence, et non du dialogue des élites et de

l'union des religions pour un monde qui recherche la paix et le respect de l'être humain. C'est dans cette perspective que le penseur Mohammed Arkoun a appelé à la relecture critique des textes pour les replacer dans leur contexte historique. C'est ainsi que le concept de tolérance doit être revisité afin de contribuer à un règlement fructueux des conflits d'intolérance entre les trois religions bibliques: le judaïsme, le christianisme et l'islam. Et la recherche des conditions de la coexistence pacifique par le dialogue, phénomène inhérent à l'architecture humaine s'avère incontournable. C'est une reconnaissance mutuelle de l'autre. Mohamed Arkoun conclut que les pays du monde islamique ne connaissaient pas la politique de tolérance dans la pratique, mais reconnaît théoriquement que les grands textes étaient les germes de la première idée de tolérance, et fournit des modèles dont l'appel à la tolérance, Mais il ne résonne pas avec la réalité historique et, il est impossible de le réaliser en raison des structures sociales et des cadres de pensée dominants. Il souligne, par ailleurs, la nécessité de l'autocritique de toutes les expériences passées et de la relecture des trois religions bibliques.

Mots clés: Tolérance; non-tolérance; coexistence; religions bibliques; attitude théologien; pensée religieuse; islam et christianisme; dialogue interreligieux.

مقدمة

إن غالبية مشاريع الفكر العربي المعاصر أضحت مساءلتها أمرا أكثر من ضروري، من خلال فتح النقاش حول مضامينها واكتشاف زوايا القوة في كل مشروع ومحاولة تفعيلها، فهناك قضايا ومشاكل راهنة تعرفها المجتمعات تجعل من سؤال التسامح موضوعا للتفكير في أبعاده المتعددة، ونجد ضمن المثقفين المعاصرين الذين انخرطوا في هذه الإشكالية، كل من المفكر الجزائري محمد أركون، محمد عابد الجابري، وعلي أو مليل، ولعل مشروع محمد أركون الفكري والمعنون أساسا بـ: "نقد العقل الإسلامي" من أعمق المشاريع التي تؤسس لرؤية جديدة وتصور يرتبط وقعا بالفرد العربي المسلم.

يعد محمد أركون صاحب المشروع النقدي الذي يتلخص في نقد الوعي الديني وطريقة تعلقه بالأشياء، فرؤية المفكر المرتبطة بالعلاقة التي ينبغي أن تجمع الأديان التوحيدية الثلاث: اليهودية، المسيحية، الإسلام، والتمعن في نظرته التجاوزية للعلاقة المعروفة بين هذه الأديان الكتابية، والتي تنطوي في سياق فضاء التسامح والعيش المشترك المنبثقة

أساسا من روح الأنسنة التي تميز مشروع محمد أركون الحداثي، والذي سعى من خلاله إلى تأسيس خطاب علمي حول التراث الإسلامي باعتباره ينطلق من هذه التداولية، وذلك من خلال إعادة قراءته قراءة نقدية تموضعه في سياقه التاريخي والاجتماعي بعيدا عن كل أشكال الأسطورة والأدلجة كما يفعل غالبية المسلمين، متجاوزا في نقده حدود الظاهرة الإسلامية ليصبح نقدا للعقل في الأديان السماوية الثلاث، في محاولة لتأسيس أخلاق كونية تقبل الجميع، هذه المحاولة يقول عنها تلميذه هاشم صالح بأنها "ليست إلا محاولة يائسة وشبه بطولية "(أركون،2011، ص10).

دوافعنا للاهتمام بهذا الموضوع يرجع أساسا إلى الرغبة في تجاوز المألوف في العلاقة التي تربط الأديان التوحيدية، من خلال تجاوز مختلف الرؤى والإيديولوجيات اللاغية الرافضة لكل ألوان الاختلاف الفكري إلى فضاء الأنسنة القابلة لكل تعدد والمنتجة لجملة من القيم الكونية المشتركة.

لم يعرف مصطلح التسامح إلا في العصر الحديث، لكن من وجهة نظر أخرى عرف كفعل منذ الحضارات القديمة، فقد سعت هذه الأخيرة إلى تطبيق قيم العدل والمحبة والتعايش، ولدت كلمة تسامح في القرن السادس عشر من الحروب بين الكاثوليك والبروتستانت(لالاند،2001)؛ فقد انتهى الأمر أن تساهل الكاثوليك مع البروتستانت والعكس، ثم صار التسامح يرتجى اتجاه جميع الديانات وكل المعتقدات، ويعد فولتير فيلسوف التسامح بحق لأنه ارتفع بالتسامح واقترب فيه من المفهوم المعاصر، إذ وضعه في صيغة المبدأ الأول لقانون الوجود الطبيعي وكأساس للقول بحقوق طبيعية للإنسان.

1. قراءة أركون للتسامح واللاّتسامح وضرورة العيش المشترك

تجاوز محمد أركون أو كما يطلق عليه البعض اسم فولتير العرب في رؤيته من نقد للعقل الإسلامي الى نقد للعقل في الديانات التوحيدية الثلاث يرجع إلى مقدمه فكرية قوامها " أن الكل يشكو من نقائص وبحاجة إلى تغيير أو تعديل مواقعه التقليدية الموروثة"(أركون،2000)؛ إذ يحث على ضرورة النقد الذاتي الصريح لكل تجارب الماضي وإعادة قراءة التراثات الدينية الكتابية الثلاث على ضوء المستجدات الراهنة.

وهذا النقد الذي يدعو إليه محمد أركون لا يهدف إلى أي شكل من أشكال التوفيق أو التلفيق فيما بين الديانات الثلاث، إنما الهدف هو تقديم قاعدة ابستمولوجية صلبة

مشتركة بغية الكشف عن كيفية حصول الصيرورة الاجتماعية والتاريخية المشتركة لتشكيل أنظمة الاعتقاد واللااعتقاد، هذا الهدف الذي يصبوا إليه محمد أركون ليس بالأمر البسيط ومن ثمة لن يتحقق إلا بعد تحقيق العديد من الآليات المساعدة على ذلك، فبلورة هذه الرؤية الأركونية على المستوى النظري أمر غير كاف، إنما ينبغي أيضا توافر الإرادة من أجل تطبيقها على أرض الواقع، وهذه الإرادة يشترك فيها الجميع من أفراد وجماعات، ورجال الدين والسياسة لأن المسألة تتعلق بطرق تغيير طرق التفكير والتعامل.

محمد أركون ارتأى إلى آليات جديدة تنبثق عنها فكرة التسامح وثقافة العيش المشترك بين الأديان الكتابية، فكان لابد من ضبط المصطلحات الأساسية أركونيا، فهو ينطلق من أنه لا يمكن أن نضع مفهوم التسامح على مسافة نقدية كافية منا، بل لا يمكن ضبطه ابستومولوجيا إلا إذا عرجنا على مفهومي "اللاّتسامح" و "الذي لا يحتمل ولا يطاق"، "فاللّاتسامح الفكري الملازم لكل الأنظمة اللاهوتية للاعتقاد/ اللاّ اعتقاد، كان يعاش ويعتبر كقيمة باعتبارها إيجابية طوال العصور التي سبقت ظهور العقل الحديث، أي طيلة الفترة التي سيطر فيها التفكير اللاهوتي المنغلق الرافض لكل صور الاختلاف والقابعة تحت لواء الأنا، غير أن انتصار العقل الحديث وفرضه لنفسه في كل نواحي الحياة الإنسانية كشف الطابع السلبي والضيق جدا للتسامح الديني، هذا ما حصل في أوربا بادئا وبشكل تدريجي بداية من عصر التنوير، بالمقابل نجد أن العالم الإسلامي لا يزال يعاني من انعدام التسامح بالمعنى الحديث للكلمة، التسامح الذي يضمن لكل فرد/ مواطن حرية التفكير والتعبير والنشر، هذا ما قاد محمد أركون للحكم على المجتمعات العربية والإسلامية بأنها تعيش تراجعا إلى الخلف ذلك من خلال إدخال ثقافة التعصب واللّاتسامح في البرامج الدراسية للتعليم الديني"(أركون، 2000، ص246)، مؤكدا على خطورة هذا الفعل باعتباره موجها إلى التلاميذ الصغار وبالتالي يصعب عليهم فيما بعد التخلص منه، وهذا ما يصفه أركون على أنه انحراف ديني لا يحتمل.

2. ارتباط التسامح بالمقدس وحوار الأديان

يرى محمد أركون أن التسامح ظاهرة مركبة معقدة جدا من الصعب تحقيقها الا بتوفير موجبات تحقق ضمن أوساط اجتماعية، ثقافية، وسياسية متغيرة من وقت إلى آخر(وهنا يدخل عامل التاريخ) أو متنوعة (وهنا يدخل عامل الأنثربولوجيا الثقافية)، وهكذا نجد أن التسامح عملية صعبة لا تستطيع كل المجتمعات أن تضمنه أو تؤمنه لكتابها ومفكريها "(أركون،2000)؛ وعليه فالتسامح مرتبط ارتباطا وثيقا بمدى وعي المجتمع وتطوره.

فلا شك أن فضيلة التسامح فضيلة إنسانية مطلقة، لذلك استقى محمد أركون من نصوص الأديان التوحيدية ما تؤسس به وقعا لآليات التسامح بين الأفراد، مستندا كمثال على ذلك الموقف الذي اتخذه يسوع المسيح من أولئك الذين يريدون أن يرجموا المرأة الزانية، عندئذ قال كلمته الشهيرة التي تدل بعمق على معطى التسامح: "من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بالحجر"، وهو بهذا يتجاوز كل الأعراف والتشاريع نحو فضاء التسامح الرحب، ليعرج أركون للاستدلال بالنص القرآني على مفهوم التسامح من خلال الآية القرآنية في قوله تعالى: "من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا"(سورة المائدة، الآية 32)؛ فالنص القرآني يعبّر بوضوح على أنه من قتل نفسا واحدة، والنفس بلفظ عام بدون تصنيف - فكأنما قتل البشرية جمعاء من خلاله، والمبدأ القرآني هنا مبدأ كوني، (أركون، 2000)؛ كذلك تعد سيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم كأبلغ مثال عن التسامح في حادثة فتح مكة، حيث انتظر أهل مكة أن يعاقبهم النبي صلى الله عليه وسلم جزاء الأذى والسخرية التي طالته به وأصحابه، فقال لهم مقولته الشهيرة : "اذهبوا فأنتم الطلقاء" كفعل من النبي صلى الله عليه وسلم عن نُبله وعِظَمِ الرسالة السمحة .

نصل هنا إلى أن التسامح واللاّتسامح في المجتمعات ارتبط ارتباطا وثيقا بالمقدس أو الدين أساسا هذا الأخير يقاربه محمد أركون على أنه كتلة معقدة من التصورات والمعايير والطقوس الشعائرية والاعتقادات الإيمانية والمعرفية والمؤسسات وكل هذه الأشياء تؤثر على رؤيتنا للآخر بل وتتحكم بها، فدراسة المعتقدات الدينية وممارستها والنتائج المترتبة عنها تندرج ضمن سياق علم الأديان وهو العلم الذي "يدرس الممارسة الإنسانية للدين من حيث هو من رقابة الإنسان على عالمه ووسيلة من وسائل تعريف

الإنسان في العالم وحيال أشباهه من البشر كما يحلل علم الأديان علاقة الطبيعي بالخارق، العادي بالمقدس، المألوف بالمعجز، السوي بالعجيب والمذهل، ويركز أخيرا على تحديد خصائص الظاهرة الدينية ذاتها"(جيب عادل العوا، 1997)؛ وهنا ترسّخت في العصور الوسطى ثلاث أنظمة "الدين الحق"، فاليهودي يقول بأن دينه وحده الحق، والمسيحي يقول الشيء نفسه، وكذلك المسلم عندئذ حصل النبذ وترسخ اللاّتسامح بين الأديان الكتابية وكذلك الحروب المتكررة.

فعلاقة تاريخ الأديان بعلم الأديان هي أن الأول أشمل من الثاني لذلك فالأول يحتوي الآخر ويكون الثاني تابع للأول، ويشتركان في موقف الالتزام بموقف الحياد والموضوعية بنفس القدر اتجاه الأديان دون استثناء، لذلك، يجتهد لبلورة لاهوت جديد عن طريق تجاوز التناقضات الموجودة بين الأديان الثلاثة بالبحث عن قيم مشتركة وإقامة تواصل بين العقل العلمي والعقل الفلسفي والعقل الديني (جيب ، 1997).

التأصيل المفاهيمي من شأنه أن يوضح معالم المنظر الجديد الذي ينطلق منه محمد أركون، والذي يتجاوز فيه التداولية التي ينتمي إليها، باعتباره ابن بيئة إسلامية، وعليه فهو يتجاوز القرآن وتفرعاته اللاهوتية ليشمل كل الأديان الكتابية، أو يعاملها بالطريقة ذاتها، ومن هنا يرى محمد أركون بأن "الإسلام بحاجة إلى علماء دين ثوريين أكثر من حاجته إلى مصلحين ليستلهم جرأة كافية لملامسة المسلمات الدوغماطيقية المنتجة أو إعادة تمحيصها منذ القرن الثالث عشر ميلادي على الأقل" (أركون، 2008، ص47).

وهنا نستطيع القول بأن تاريخ الأديان ما هو إلا دراسة علمية وموضوعية تتناول ديانات العالم القديمة والجديدة، وكانت هادفة إلى معرفة حقيقتها واكتشاف التشابه والاختلاف بينها لاستخلاص مفهوم الدين بشكل عام وتبيين خصائص الشعور الديني لتبيان التسامح للعيش المشترك بين مختلف الديانات الموجودة والاعتقادات المختلفة.

3. عوائق التسامح بين الأديان الكتابية

نتموضع الآن أمام العديد من العوائق التي قد ترهن عملية انتقال مفهوم التسامح وثقافة العيش المشترك من العقل إلى ممارسة واقعية، منطلقا من تداولية إسلامية باعتباره يفكر من داخل أزمات البيئة الإسلامية، فيتجه أركون إلى أن المعيق الأساسي للتسامح بين الأديان الكتابية مصدره هو الموقف اللاهوتي التقليدي باعتباره موقف يؤسس للنبذ المتبادل بين النسخ الثلاث المتنافسة من دين التوحيد، أي اليهودية والمسيحية والإسلام، فلاهوتيا راح كل واحد من هذه الأديان الثلاثة ينبذ الدينين الآخرين ويكفرهما، ويعتبر أنه هو وحده الدين الحق أو الدين الإلهي الصحيح، ويستدل محمد أركون على هذه الانغلاقية اللاهوتية بنصوص مأخوذة من كل دين من هذه الأديان، وكذا الإعلام المنظرون لها التصور الضيق، مستشهدا بنص لابن خلدون " والذي يقول: "ينبغي أن يعم الإسلام البشرية كلها ولو بحد السيف أو بالجهاد لأنه موجه إلى البشرية كافة على عكس الأديان الأخرى كاليهودية والمسيحية المحصورة بفئة معينة فقط" (أركون، 2007، ص47).

هذا النقد الموجه إلى ابن خلدون من طرف أركون يدل على الرؤية التجاوزية التي تميز الخطاب الأركوني، تجاوز لجملة "السياجات الدوغماتية المغلقة"، وهو مصطلح أركوني خالص، ويعني به "طريقة تمظهر ممارسة التدين من قبل الفاعلين الاجتماعيين، كنظام مغلق من العقائد واللاإعقائد ضمن إطار مغلق"(أركون، 2011، ص88). فالمسلم يؤمن بمجموعة من العقائد ويعتبرها صحيحة مطلقا ولا نقاش فيها، وبنفس الطريقة لا يؤمن بما سواها من عقائد ويعتبرها لاغية مطلقا، نفس الكلام يصدق على المسيحي كما يصدق كذلك على اليهودي، وهكذا تصبح كل ملة عبارة عن نظام من الإيمان واللاإيمان.

وهنا نصل إلى أن تشكل الفهم الأصولي لدى الأديان الثلاثة سرعان ما انجر عنه واقع عنيف متطرف، فرجال الدين في المسيحية (الباباوات) ألهبوا الحملات الصليبية المتتابعة وقادوها وكان ذلك عام 1090م، "وكانوا قد استخدموا مصطلح "الحرب العادلة" وهو مصطلح أطلقه القديس أغسطينيوس، ثم رفعها لمرحلة أعلى ولقبها ب"الحرب المقدسة"، وهو مصطلح أقوى لاهوتيا من مصطلح "الحرب العادلة"، لأنها بهذا الشكل أصبحت إلهية أو مفروضة من قبل الله " (أركون، 2011)؛ ذاك من أجل الوصول

إلى بعث المسيحية من جديد كدين صحيح بمقابل أن كل الأديان الأخرى خاطئة ولا قيمة لها من وجهة نظرهم.

نفس المنطق موجود في التاريخ المرتبط بالبيئة الإسلامية، ونموذج صلاح الدين الأيوبي أحسن نموذج باعتباره استخدم نفس العملية من أجل استعادة الأراضي التي كان الصليبيون قد احتلوها، حيث جيّش جيوش المسلمين مستخدما روح الجهاد، "والجهاد في اللاهوت أو الفقه الإسلامي هو المقابل الحرفي للحرب المقدسة في اللاهوت المسيحي وهكذا نلاحظ أن اللاهوت الديني استخدم كسلاح فعال إبان تلك الحروب، وبهذا نجد أننا انغمسنا كليا في الخيال الديني المشترك للاهوت القرون الوسطى لدى مختلف أديان ومن هذه الناحية لا يوجد فرق بين الإسلام والمسيحية واليهودية" (أركون، 2011، ص91).

هنا نشير إلى أن التفكير الديني الإسلامي المشكل للتراث قد ساهم في دفع الآخرين إلى نبذه وذلك عن طريق التشبث بالمواقع الفكرية التقليدية واعتقاده بإمكانية المحافظة على فرادته اللاهوتية والحضارية القديمة(أركون، 2011)؛ وعليه انغلق التفكير الديني على ذاته واضعا سياجا دوغماتيا مغلقا لا يقبل تعدد الآراء.

إن هذه الآراء المغلقة أفرزت رؤية اختزالية ترى في الإسلام هو النموذج المخلص ويقصد محمد أركون بالإسلام "هو ذلك التدين كما يفهمه الأصوليون او بالأحرى يتهمونه باعتبار أنه لا يوجد أي فهم تاريخي عقلاني للإسلام في العالم العربي او الإسلامي ككل..."(أركون، 2011،ص330). إذ يؤكد أن معوقات التسامح والعيش المشترك بين الأديان التوحيدية يمكن حصرها في سبب جلي وواضح وهو سيطرة اللاهوتي

القروسطي على التفكير الديني، والذي أفرز تصورات تربط الذات بالآخر ساهمت في انعدام آليات التسامح بين الأديان الكتابية، باعتبار أن المسلمين يمثلون الآخر بالنسبة للمسيحية الغربية، وكانت مكانتهم مكانة العدو أو الكفار المحميين أي أهل الذمة، تماما كما كان اليهود والمسيحيين في أرض الإسلام، وبالتالي عندما كان قويا مهيمنا مارس العملية نفسها"(أركون،2011)؛ واحترام الآخر كإنسان بغض النظر عن انتماءاته الدينية أو المذهبية شيء جديد لم يعرف إلا في عصر الحداثة الفكرية والفلسفية التنويرية، إذ يتمظهر ذلك في انعقاد المجمع الكنسي التجديدي الشهير باسم مجمع

الفاتيكان الثاني عام 1965م، عندئذ اعترفت المسيحية الكاثوليكية لأول مرة بالإسلام واليهودية وحتى البوذية والهندوسية، ولم تعد تقول بأنها وحدها تملك الحقيقة الإلهية كما حصل سابقا طيلة قرون وقرون.

هذه الإرهاصات الإيجابية الأولى للتسامح الديني التي برزت مع الحداثة الأوربية لا يلغي أن هناك انعداما للحوار بين الأديان الكتابية اليهودية والمسيحية والإسلام لكن هذه الحوارات لا ترقى إلى ممارسة فعلية، يرجع هذا حسب أركون إلى عدم احترام المؤمنين التقليديين للمعرفة العلمية المتعلقة بالظواهر الدينية (أركون، 2011)؛ باعتبار أن إيمانياتهم ويقينهم القطعي على المعرفة العقلانية وبراهينها تصعب الحوار مع المؤمن التقليدي وأحيانا يستحيل.

إذن هنا لا يلغي أركون الذي يعترف بأن المسيحية الكاثوليكية (إيمان تقليدي)، قطعت أشواطا نحو ترسيخ ثقافة العيش المشترك وحققت قفزة نوعية بالقياس إلى لاهوت القرون الوسطى التكفيري، فقد جددت لاهوتها القديم وتخلت عن احتكار الحقيقة الإلهية المطلقة واعترفت بمشروعية الأديان بما فيها الإسلام الخصم اللدود(أركون، 2011)؛ واضعة حدا لمفهوم (الحرب المقدسة) والتي تقابل الجهاد في الإسلام، والتي أشعلت الحروب الصليبية في الماضي .

ويعرج محمد أركون على المؤتمرات التي تعنى بحوار الأديان مقدما لها نقدا لاذعا باعتبارها ساهمت في تأخير الخروج برؤية تسامحية بين الأديان، والتي تواصلت منذ المجمع الكنسي الشهير باسم الفاتيكان الثاني، حيث أن هذه المؤتمرات " لم تحل دون تفاقم انحرافات الظاهرة الأصولية لأديان التوحيد بشكل خاص، معتبرا مواضيع هذه الحوارات ما هي إلا مجاملات في غالبيتها، "ولا تجرؤ هذه المؤتمرات على طرح الأسئلة الحقيقية على العقائد وهذا لكي لا تحرج أبدا، وهي حوارات بالتالي لن تحل أبدا المشكلة" (أركون، 2011، ص110).

ففشل هذه الحوارات سواء "العربي/الأوربي" أو "الإسلامي/المسيحي/اليهودي"، فشل يعود في الأول إلى النظرة الأصولية التي ينطلق منها المؤمن التقليدي والتي يصعب مناقشتها وتفكيك بنيتها الشيء الذي يرهن نجاح هذه المؤتمرات الحوارية، لذلك يقدم أركون منهجية جديدة تتجاوز المنهج القديم في التعاطي الأديان، فيرى أنه بدلا من

صدى أصوات مبعثرة تحتفل ظاهريا باحترام جميع الأديان، فنحن بحاجة إلى دبلوماسية تحقق إجماعا دوليا حول الشروط الضرورية والكافية من أجل أن تضمن عدم تدخل الأنظمة السياسية في الشؤون الدينية، ذلك نظرا لتأثيرها السلبي في الأديان عبر الأزمنة، الأمر الذي أنتج أصوليات يصعب الحوار معها.

وكدليل على عدم نجاعة هذه الحوارات العاطفية، فاللاهوت السياسي عاد للبروز في عصرنا هذا لكن دون الأنماط والصور التقليدية، بل بتشكلات جديدة تحت اسم القطبين المتصارعين اللذين يتعذر التوفيق بينهما، أقصد الجهاد الإسلامي من جهة، وقطب العولمة الأمريكية من جهة أخرى (أركون، 2011)؛ هذا الصراع تمظهر آخر للمعيقات التي تعيق رسكلة ثقافة العيش وإشاعة روح التسامح بين الأديان الكتابية بشكل خاص.

خاتمة

مشروع محمد أركون النقدي شكّل حلقة هامة ومركزية في بنيته، بحيث يصعب فصل المنهج عن الأهداف التي أراد الوصول إليها، ولقد استفاد أركون من وجوده في الغرب، وإطلاعه على التطور الذي وصلت إليه المناهج العلمية في دراسة التاريخ المتعدد الجوانب، وهي مناهج لم يسبق أن تعرّف إليها العقل العربي قبل أركون، ويشير أركون في كتابه "نزعة الأنسنة في الفكر العربي" أنه ينبغي على المنهج أن يدرس الظواهر من خلال التداخل والتفاعل المستمر بين نسق الروح من جهة، ونسق الأشياء من جهة أخرى، فالتأملات الأكثر تجريدا، والأكثر مجانية من حيث الظاهر، لها دائما علاقة مع بواعث فردية".

وهنا نخلص إلى أن النزعة الإنسانية الكونية لدى محمد أركون كانت لابد أن تمر على أنسنة الخطاب الديني التوحيدي، بتمظهراته الثلاث، لذلك حاول أركون في مشروعه تجاوز الأنماط التقليدية التي تربط العلاقة بين الأديان الكتابية، بُغية خلق ثقافة من التسامح تتجسد إلى تعايش اجتماعي مشترك موضحا "بأن الإسلام لا يزال يعاني من انعدام التسامح بالمعنى الحديث للكلمة"(أركون،2011)، وعليه يضع أركون جملة من الآليات التي قد تبعث حالة من التسامح بين الأديان الكتابية، ذاك أن تحقيق ممارسة إيجابية وفعالة للتسامح يتطلب توفر شرطين أساسين، شرط ذو بعد سياسي من خلال وجود دولة حق وقانون، تضمن الحصانة المتساوية لحرية التعبير لكل المواقع

الفكرية والعقائدية دون استثناء، أي لكل الأديان والفلسفات والمذاهب، أما الشرط الآخر فذو بعد اجتماعي، ذلك أنه لتحقيق ثقافة العيش المشترك وجب "وجود مجتمع مدني متماسك ومتقدم ومتشبع إلى حد الكفاية بالثقافة الفلسفية والقانونية المتسامحة، ذلك لكي يلعب الدور الأساسي للشريك الحر والمتشدد مع الدولة، دولة القانون"(أركون،2011)، هنالك فقط تستلهم الدولة الهمة والقوة، وعليه لن تسقط بذلك دولة القانون ولن تركن لأحد سواء بالمحاباة أو التحيز لطرف ما بأي شكل من الأشكال.

هذه الشروط تحققت وقعا في الأنظمة الديمقراطية التي تميز أوربا الغربية، باعتبار أن هذه الأنظمة ألغت من ديباجاتها ودساتيرها مفاهيم الإلغاء، وكذا التصانيف من خلال القانون الخاص بالتحريف والكفر أو الجريمة وانتهاك المحرمات والذي حذف من الدستور أو أبطل بكل بساطة.

قصارى القول يمكننا القول أن محمد أركون أراد أن يؤسس لرؤية جديدة تتمركز داخل محور نقد العقل الديني في الأديان التوحيدية، كل ذلك من خلال نقد للتراث ونقد العقل العربي والتاريخ الإسلامي ودراستهم دراسة علمية تاريخية، هذه الدراسة التي يراها محمد أكون أكثر من ضرورية من أجل النهوض والتحديث أو التحرير الفكري وهو الهدف الذي يتطلب توفر إرادة الجميع لتحقيقها على المدى البعيد، هذا ما يصعب إيجاده في ظل المعطيات الحالية والتنافس الشديد وسيطرة لغة المال والقوة على لغة العلم والمعرفة، فالحوار المثمر بين الأديان التوحيدية وتغيير النظرة المشوهة فيما بينها كل هذه المقترحات قد تصطدم بصلابة المواقف التقليدية ومتانة الأسيجة الدوغماتية الرافضة لكل طرف من الأطراف الأخرى، ومن ثم يبقى تطبيق وممارسة التسامح بين هذه الأديان حبيس الجانب النظري فقط وعليه تظل مقترحات أركون أقرب إلى الطوباوية الحالمة.

المراجع

1. أركون محمد، 1999. الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، ترجمة هاشم صالح، ط1، دار الطليعة، بيروت.

2. أركون محمد، 2000. قضايا نقد العقل الديني، كيف يفهم الإنسان اليوم؟، ترجمة وتعليق هاشم صالح، ط2، دار الطليعة لطباعة والنشر، بيروت.

3. أركون محمد، 2008. من منهاتن إلى بغداد ما وراء الخير والشر، ترجمة عقيل الشيخ حسين، ط1، دار الساقي، بيروت.

4. أركون محمد، 2011. نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية، ط1، ترجمة هاشم صالح، دار الساقي، بيروت.

5. أنجلو مايكل، 2010. أعداء الحوار أسباب اللاتسامح ومظاهره، الهيئة المصرية العامة للحوار، القاهرة.

6. لالاند،أندريه، 2000. موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة خليل أحمد خليل، ط2، مشورات عويدات، بيروت.

7. جيب عادل العوا، 1997. علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي، ط1، منشورات عويدات، بيروت.

8. سورة المائدة، الآية 32.

9.مسرجي فارح، 2012. قراءات في مشروع محمد أركون، منشورات مخبر الدراسات الفلسفية والاكسيولوجية، الجزائر.